

من أيام الفتح

من مؤتة إلى اليرموك

للدكتور عبد الوهاب عزام

- ١ -

في العام الثالث بعد السّنة من الميلاد ، وذلك قبل بعثة الرسول بست سنين ، اشتعلت الحرب بين الروم والفرس . وهي حلقة من سلسلة طويلة من الحروب بُدِئت منذ ظهر الرومان في غرب آسيا ، واستمرت بين الرومان والآشكانيين ، ثم ورثها الساسانيون والبيزنطيون حتى شغلت من التاريخ سبعة قرون بين الاشتغال والحمود . وهذه الحلقات الأخيرة التي سبقت البعثة واستمرت بعد الهجرة سبع سنين قد اهتم بها العرب ونزلت فيها آية من القرآن : « غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفليون ، في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء . وهو العزيز الرحيم » . انتصر الفرس في عهد كسرى بروز على الروم زهاء عشرين سنة متوالية فملبوم كل ما ملكوا في آسيا ، وفتحوا بيت المقدس وأخذوا الصليب الكبير ، ثم غلبوم على مصر . وظهرت جيوش الفرس على أبواب القسطنطينية مرات . وظن الناس أن الروم لا تقوم لهم قاعة . ثم أجمع الروم أمرهم ، وقادهم هرقل من ظفر إلى ظفر خمس سنين أنت على كل ما ناله الفرس في الحروب المتتالية . وخلع كسرى بروز بعد أن أخرجه الهزائم من دار ملكه ومات ذليلاً حزينا ، وخلفه ابنه قباد الثاني فصالح هرقل على أن يرد على الروم كل ما سلبوه في آسيا ومصر وأن يرد الصليب المقدس . وسار هرقل في أعظم مواكبه إلى بيت المقدس ليضع الصليب موضعه في ديسمبر سنة ٦٢٩ م . وبلغ هرقل من العزة والهيبة والصيت ما بلغ

- ٢ -

في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة بعد غزوة خيبر بشهرين وجه رسول الله ، ثلاثة آلاف من أصحابه إلى الشام ، وجعل القيادة لزيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبدة بن رواحة . وكان هذا إذناك بيمد الشقة ، وجسامه المطلب ، وعظيم الخطر لما سار الرسول صلوات الله عليه جيشاً لحرب الروم في أرض بعيدة ؟ يقول المؤرخون أن الفسانيين قتلوا رسوله إلى أمير بصرى ؛ ولكن أحسب الأمر أوسع من هذا فقد أراد

المسلمون أن يرهبوا الطامعين فيهم ويعرفوا موقف القبائل العربية الضاربة في سلطان الروم من المسلمين : أحرب هم أم سلم .

سار المسلمون إلى مَمان فإذا هرقل الذي حالفه الظفر خمس سنين حتى رد إلى سلطان الروم ما أخذه الفرس وزلزل سلطان كسرى في ديار كسرى - قد جمع في مآب جوعاً حاشدة من الروم والعرب - وتشاور المسلمون وهمتوا بأن يكتبوا إلى الرسول ولكن ابن رواحة قال : « يا قوم والله إن الذي تكرهون لَلَّذِي خَرَجْتُمْ لَهُ ؛ خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ ؛ وما تقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ، ولا كثرة . ما قاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين ؛ إما ظهور وإما شهادة » . التقى الجمعان عند مؤتة وهي قرية في البلقاء التي تسمى اليوم شرقي الأردن ، إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت . واستمرت الحرب وقاتل زيد بالراية حتى قتل ، وتقدم جعفر للشهادة فقاتل حتى نالها . وتلاه ابن رواحة فقتل . فاجتمع الناس على القائد المحنك المظفر خالد بن الوليد فقاتل كما يقاتل خالد حتى تراجع بالجيش الصغير فألقاه من الجوع المطبقة عليه فمَلَّ القائد الحازم لا يهلك جيشه في معركة خاسرة .

ثم شغل المسلمون بفتح مكة وما تلاه من الأحداث . وبعد سنة من موقعة مؤتة دعا الرسول إلى غزو الروم « في زمن عسرة من الحر ، وجذب من البلاء » زمن تدعو فيه إلى الحرب إلى ضرورة لا مناص منها . وعلم الناس أنهم يدعون لغزو الروم ، غزو بني الأصفر وهم يملكون من سلطانهم وقوتهم وانتصارهم على الفرس ما يملؤهم هيبة . حتى قال بعض المنافقين : « أتخسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؛ والله لكان في بكم غداً مقرنين في الجبال » سار الجيش إلى تبوك ، وكانت على حدود البلاد الخاضعة لسلطان الروم في الشمال ؛ فأقام بضع عشرة ليلة وصالح الرسول صلوات الله عليه أهل دومة الجندل وأبلى وجربار وأزرح . ورجع المسلمون وقد صالحوا من صالحوا وأرهبوا القبائل الضاربة في الشمال ، وأعلموا الروم أنهم غير عاجزين عن الجمع والسير للقتال . وكانت غزوة ذات أثر في تمكين هيبة المسلمين في القبائل الشمالية ، ومحو ما أصاب المجاهدين في مؤتة ، والتمهيد لإقامة سلطان الإسلام في تلك الأجزاء

- ٤ -

ثم أعد الرسول جيشاً للمسير إلى البلقاء حيث تراجع المسلمون في غزوة مؤتة وجعل عليه أسامة بن زيد أول قائد للمسلمين